قَبْرٌ للأرض

محمد علي شمس الدين

- إلى قانا -

« .. إنها الرحمُ والقبر. وسوف تظلّ هكذا، حتى تنطفئ الشعلةُ الأخيرةُ للحياة، وتتحوّل الأرضُ إلى رماد »

(جبران خليل جبران)

[illegible]

يبدأ المَشْهدُ بالطائرِ
(أعني جَسَدي)
حائِماً فوقَ خَرابٍ لا يُحَدُّ

لم تكُنْ نارُ البساتينِ
ولا كانَتْ يدي
طَلْقةً
كانَ فضاء اللّه يَعْدو

خائفاً خلفي
وخلفي جارفاً
وَقْعَ أقدامي
وشَمْسي وهي بَرْدُ

دارَ حولي
طائرُ الهامَةِ
والذئبُ على
صورة قلبي جاثِمٌ
والريحُ ضِدُّ

لم تَزَلْ تبكي على جسمي بَقاياىَ
وترثيني عيوني
كُلّما حَوَّمَ فوقي
طائرٌ
وابتلّ وَرْدُ

وسَبايايَ نَدامى أَلَمي
مثلما أَشْرَقَ تحتَ الدمعِ خَدُّ

دَثِّروني (حينما أغفو)
بأشلائي
وغَطّوا
صدريَ العاري بجرحي
وهو شَهْدُ

جَسَدي
أكبرُ من قبري على الأرضِ
وقلبي
جَرَسُ الرعبِ
إذا جلجلَ في هذا المدى الأسودِ رَعْدُ

ينبغي
كي تُدْفَنَ أعضائي
بلادٌ
لم تَزَلْ حائرةً
كيف يواريني بها
في الصمتِ لَحْدُ

كُلُّ هذا الموتِ
(إنْ أحصيتُمُ الموتى على الرُمْضاءِ)
موتي
فهو كالرملِ
كثيرٌ
لا يُعَدُّ

لستُ وحدي

انا قبرُ الأرضِ

وَجْهي أجملُ الموتى

وقتلايَ شهودي

وأنا أكثر من أسماءٍ من

ماتوا

وأبهى من حدودي

ودمي الساحرُ

كالينبوعِ

والغابةِ

فَرْدُ

■■■

يا اللّهْ

حينَ دَخَلْتُ المقبرةَ الليليّهْ

كي أبحثَ عن جسمِ أخي في

الرمل

وأوقِدَ شمعاً قربَ وسادتِهِ

البيضاءْ

أَبْصرْتُ على جثّتِهِ

رأساً يضحكْ

أفْزَعَني هذا المشهدُ

حتى كدت أموتُ من الخشيهْ

لكنّي قلتُ: سأسألُهُ

عن سرّ منازله السُفلى

وحديقته الخضراءْ

قلت له:

ها أنتَ، أخي...

فلماذا مازلتَ هنا

لم تدخُلْ في بيتِكَ

في هذا البردِ القارسْ؟

ولماذا تضحك

حتى تبرز كالضوءِ ثناياكْ؟

أفَهَلْ أعجَبَكَ الموتُ إلى هذا الحدِّ

فصرتَ جليساً للموتى

تتبادل في كلّ مساءٍ معهم

خَبَرَ الأحياءِ فتضحكْ؟

أم أنّ الحفرةَ

أوسعُ ما يُؤْوي صدرَكَ

في أوّل هذا الليلْ؟

...

.....

كان الوقتُ مساءً

وعيونُ القريةِ

تزحف خائفةً

نحو مقابرِ موتاها

سُرُجٌ للضوءِ

تلوحُ تدبّر أصواتاً أخرى

لا يُعْرَفُ من أينَ تجيءْ....

لكأنّ جنوداً مجهولينَ

انحدروا من أرضِ خرافتهم

ثم انتشروا في قاعِ خفاياها.

...

.....

نامي يا أُخْتَ أخي

هذا طفلُكِ يحمل طفلاً آخَرْ

ويطوفُ به في حقلِ الدَمْ

هذا طفلُكِ يُقْتَلُ محمولاً

في سيّارة إسعافٍ

تحت عيونِ النَجْمْ.

عَجَلاتُ قطارٍ

تهدرُ في مسرحِ خوفٍ غامضْ

وممالكُ تقرضُها الجرذانْ

الكوفةُ قاتلةٌ

ودِمَشْقُ بعيدهْ

لا أَحَد يعرف في هذا المنفى أَحَداً

كان هنالكَ قنّاصونَ

بنادقُهُمْ عمياءْ
مطر أسودْ
ومياهٌ مغلولهْ
ناقة دمعٍ بيضاءْ
والحقل بعيدْ...
خيطُ يدٍ
لا طفلَ ليُمسِكَ في السهلِ به
أو يَتْبَعَهُ
خيطٌ مقطوعْ
شلاّلاتٌ تبكي
أدغالٌ متشابكة الأشجارْ
وَوَحْشُ يَهوذا
يتكوّم في جوفِ العالَمْ.

قلتُ إذنْ:
سيكون شُغورٌ للأيامْ
ستكونُ خدوشٌ
تحفرها الطَلَقاتُ
على جدرانِ الروحْ
ستكونُ مناحاتٌ كبرى
ما بين الكوفةِ والإسلامْ

ونَظَرْتُ
فأبصرتُ جموعاً
يمشونَ بعكازاتٍ تحتَ الأحلامْ
ونساءً
مُتشحاتٍ بثيابِ الحزنِ
ويندبْنَ غريبَ الغرباءْ
لا فاتح في قريتهنّ
سوى الموتْ...
أبصرْتُ نُعوشاً بيضاءَ
تحوم على أفقٍ طائرْ
أبصرتُ الرحمةَ خائفةً
وتدورُ على الأبوابْ
أبصرتُ الرعبَ الجاثمَ
بين القُبّةِ والمحرابْ.
...
....
يا اللّهْ
سأضمُّ أخي في آخر هذا الليلِ
وأسألُه:
ماذا أفعلْ؟
عَرَباتُ يَهوذا
تنزلُ من صوبِ التوراةِ
وتجرفُ آخر أطفالي
ستمرُّ على صدري
أقدامُ الجُنْدِ
وأحذيةُ الأعراب
ويُباعُ ردائي
في آخر سوق العيّارينْ

يا اللّهْ
مازلتُ أحومُ
على أسوار بلادٍ
أعلى من جَسَدي
فلْتَفْتَحْ
أبواب مدينتِكَ الموصودةِ
حتى أدخُلْ
فأنا
(كي تَصدُقَني الرؤيا)
أبصرتُ الضوءَ
يلوحُ على آخر هذا السردابِ
فأنَسَني
فَدَخَلْتُ...
فوجدتُ قبوراً
تنْشَقُّ
ويخرجُ منها
قَتْلاها.

الجنوب